كلمة الأمة بين يدي القرن

ونحن على أبواب القرن الخامس عشر الهجري ، لابد لنا من وقفة لمراجعة الحساب والاعتبار بما سلف ، واختبار وسائلنا في الدعوة الى الله ، والتعرف على أسباب تقصيرنا ، ومواطن قصورنا ، هذه الوقفة لابد منها في هذه المناسبة ، وفي غيرها من المناسبات ، ننظر من خلالها إلى المرحلة الماضية ، بكل ما لها وما عليها ، نتعرف على أخطائنا ونعالجها بشجاعة وبصيرة وايمان ، بعيداً عن أمراض النفس كلها ، من صلف وغرور واستكبار بغير الحق ، فالرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل ، والحق أحق أن يتبع .

لتأخذ القيم الاسلامية مكانها الصحيح في حياتنا ، على كل المستويات ، في مجال الفرد والأسرة والمجتمع ، ولا تبقى شعارات تطرح على المنابر ، وتملأ الصحف والمجلات ، ونحسن توظيفها في المناسبات .

هذه المراجعة لابد منها ، كما قدمنا ، ففي الماضي عبر وعظات ، وفي المستقبل آمال وأمنيات ، وهذا ليس من باب الرجم بالغيب ، بل قياس الحاضر بالغابر ، والشاهد بالغائب ، والاستعداد للمستقبل من عبرة الماضي وواقع الحاضر ، أو من باب العبرة المقروءة في تاريخنا البعيد ، والعبرة المشاهدة أو المسموعة في تاريخنا القريب ، تاريخ القرن الرابع عشر .

لقد لخص الماضي بأحداثه السريعة ، وبالتحولات الكبيرة التي حدثت فيه ، والتجارب المريرة التي خاضها المسلمون فيه أو تعرضوا لها ، لخص أحداث قرون طويلة ، وكأنما اختصر تاريخ هذه الأمة الطويل بكل جوانبه في ظروف هذا القرن المنقضي .

لقد علمنا تاريخ هذه الأمة أن الاسلام لم يخرج فيها — بين مد وجزر — عن أن يشكل درعها في حالة الغلبة ، وحافزها وعدة كفاحها في حالة الانتصار .

لقد علمنا تاريخ هذه الأمة في القديم والحديث ، أن الاسلام هو الذي حفظ على الأمة هويتها ، وحال دون ذوبانها وانقراضها في حالات الضعف والانهيار .

كما أن الاسلام وليس سواه ، هو الذي أخذ بيدها الى مواقع الانتصار على الاستعمار القديم ، كان درعها الواقي عندما تكالبت عليها قوى الشر من هجمات صليبية وصهيونية وتترية ومغولية ... كما أن الاسلام كان هو المحرك الحقيقي لحركات التحرير ، واسقاط الاستعمار الحديث .

ولسنا الآن بسبيل أن نبين أيضاً : أن الايمان بالله تعالى كان ولا يزال عدة كفاح الأمة المسلمة ، ودرعها الواقي في كل الظروف ، حتى عند أولئك الذين يعرفون ذلك ولا يعترفون به .

لذا نجد أن الذين يقودون الحركات التحريرية يلجأون إلى إذكاء عواطف المسلمين بالاسلام ، لأنهم عاجزون دائماً ، وفي كل الظروف ، عن تصعيد العمل التحريري دون إثارة هذه الجذوة في النفوس .

لقد أهاب هؤلاء الزعماء بالشعوب الاسلامية باسم الاسلام ، في كل أرض اسلامية قامت فيها معارك التحرير ، معلنين أن هذه المعارك إنما هي حرب بين الايمان والكفر .

إن هذه الظاهرة لم تلمح في بلد واحد من بلاد المسلمين دون سواه ، بل نراها في كل بلاد المسلمين على حد سواء ، ولعل أوضح مثال مبكر على ذلك يأتي من تركيا ، وهي البلد المسلم الذي أسقط رغماً عنه في مناخ التغريب واللادينية على يد أتاتورك : تروي كتب التاريخ أنه لما غزا اليونان آسيا الوسطى بعد الحرب العالمية الأولى ، هب مصطفى كمال يقتحم الجيوش التركية وفي يده مصحف ، يناشدهم بحماس شديد ويقول :

أيها الأتراك هل تعلمون ما هذا الكتاب الذي بيدي ؟ فيجيبونه : إنه المصحف الشريف . فيقول لهم : إنكم إن لم تخرجوا معي للحرب مع اليونان فلن يكون لهذا الكتاب بقاء في هذه الأرض .

حرض مصطفى كمال المسلمين باسم الاسلام فخرجوا واضعين رؤوسهم على أكفهم ، وطردوا اليونان من أرضهم ، مسجلين أرقى التضحيات والاستشهاد في سبيل الله ، ثم كان بعد ذلك ما كان ، وانتهت تركيا إلى ما هو معروف — وليس هذا الأمر في تركيا فقط من بلاد العالم الاسلامي — فمعارك التحرير في كل بلد اسلامي إذا رجعنا إلى تاريخه ، كانت دوافعها هي : دوافع الايمان وشعاراته . حتى المعارك الحديثة مع اسرائيل قدمت للناس على أنها حلقة في سلسلة المعارك الاسلامية . بدر واليرموك والقادسية وحطين ، وكانت شعارات المقاتلين فيهـا «الله أكبر» .

فهل هناك أغرب من أن تضرم معارك التحرير باسم الاسلام ، ويضرب فيها المسلمون باسم الاسلام الرقم القياسي في تسجيل البطولات ، ثم إذا تحقق النصر يعود الاسلام أول الضحايا .

لقد كان من أحداث القرن الماضي الكبرى : اسقاط الخلافة وما نتج عنه من الاستعمار من جانب ، وإقامة اسرائيل من الجانب الآخر ، ولعل اسقاط الخلافة كان من لوازم قيام اسرائيل .

لقد عملت الدول الأوربية الاستعمارية تخريباً وانهاكاً فى جسم الخلافة الاسلامية ، تحت شتى العناوين ، وما خبر «المسألة الشرقية» عنا ببعيد ، والتدخل المستمر باسم حماية الأقليات ، ولكل دولة استعمارية أقلياتها في دولة الخلافة في الماضي ، كما أن لكل دولة استعمارية عملاءها الدائرين في فلكها تتدخل لحمايتهم في مسألة «الشرق الأوسط» فهل يعيد التاريخ نفسه؟ أم يعيد الناس التاريخ ؟ أم يتغير الممثل ويبقى الدور ؟

الخامس عشر الهجري

ومالفرق أن تتدخل روسيا القيصرية لحماية الأقلية الأرثوذوكسية في دولة الخلافة ، أو تتدخل روسيا الشيوعية لحماية الفئات والأنظمة التي تسميها تقدمية في العالم الاسلامي الآن ، أو أن تتدخل أمريكا باسم الحرية وتحقيق مصالح الشعوب وحمايتها من المبادىء الهدامة وما إلى ذلك من الخداع .

لقد تأخر سقوط الخلافة أكثر من خمسين سنة حتى تم الاتفاق على رسم الخرائط الاستعمارية ، وخضعت المنطقة الاسلامية للاستعمار الأوروبي ، واقتسمت تركة الخلافة ، فأصبحت الأمة أمماً والدولة الواحدة دولا ، وأوقظت النزعات الاقليمية ، من فرعونية وفينيقية وآشورية وبربرية ، ووضعت القيود ورسمت الحدود ، وأعيدت قراءة التاريخ من جديد ، وانبعث صوت بعاث ، وعادت إلينا الجاهلية بكل أوزارها ، حيث لم تقتصر الدول الاستعمارية على اقتسام تركة الخلافة ، وتحطيم أشيائها ، بل رافق رسم الخرائط السياسية للمنطقة وضع الخرائط الفكرية أيضاً ، ومن هنا كان لابد للاستعمار من بدائل فكرية ليمكن لوجـوده ويضمن استمراره ، وساد المناخ الاستعماري ، وخرجت المدارس الاستعمارية مجموعة من المتعلمين الأوفياء لها ، الخارجين على عقيدة أمتهم وثقافتها . يدلل بهم الاستعمار أن سبب تخلف المسلمين في دينهم ، وأن العلم نقيض الدين ، وأن أوربا لم تنهض إلا بعد انعتاقها من الدين ، وكان هذا الفوج من المتعلمين المتغربين عنوانه : الالحاد والخروج عن الاسلام .

إن هذه الظاهرة التي بهرت الأمة ببريقها فترة من الزمن ، ما لبثت أن سقطت وفشلت الحضارة الأوربية الاستعمارية في مساعيها ، بايجاد هذا الشرخ في حياة المسلمين بين العلم والدين .

وتربى الجيل المسلم الذي يتقدم الآن لاستقبال القرن الخامس عشر ، يعتلي أرقى المنابر في العلوم الانسانية والتقنية من خلال إعتزازه بدينه الذى دفعه الى العلم ، وقرآنه الذي هيأ له المناخ العلمي السليم ، حينما أمره بالتفكر والنظر .

ولم يمض القرن الرابع عشر في حياة الأمة المسلمة ، حتى انتهت خرافة الفصل بين العلم والدين ، وأصبح الأمر المرعب لأعداء الاسلام أن المتفوقين علمياً هم الملتزمون باسلامهم .

لقد فشلت الحضارة الأوربية الاستعمارية في أن تكون البديل للاسلام والحضارة الاسلامية في عالم المسلمين ، خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر تقريباً ، فكان لابد لها من إقامة اسرائيل التي أجمع العالم على إقامتها بشقيه ، سواء من أمدها بالمال والسلاح أم من أمدها بالمهاجرين والتمكين للاستعمار الاستيطاني ، وكانت الرؤية الدينية التوراتية التي قامت عليها اسرائيل في قلب العالم الاسلامي من أخطر أحداث القرن الماضي ولعله أخطرها . ولم يكتف الاستعمار بذلك بل لايزال يحاول إقامة دويلات وكيانات هزيلة من طائفية وعنصرية ، على غرار اسرائيل للتمكين لها من جانب ، ولضمان استمرار كيانها من جانب أخر .

لقد كان من مقتضى قيام اسرائيل على الرؤية الدينية ، ردود فعل سوية عند المسلمين ، وإذكاء روح الجهاد ، والشعور بالتحدي الحضاري ، فجاءت خرافة التفريق بين الصهيونية كنزعة استعمارية واليهودية كدين سماوي ، وأين أين اليهودية المعمول بها والقائمة على العنصرية من الدين الذي أنزله الله على موسى عليه السلام .

وندخل الآن القرن الخامس عشر ولازالت اسرائيل قائمة في عالمنا ، تقترب من الوضع الطبيعي والاعتراف الرسمي شيئاً فشيئاً ، ومواقع الدول العربية والاسلامية تقترب من هذا الاعتراف أيضاً .

وإن كنا نعتقد ونحن على مداخل القرن الخامس عشر أن قضية فلسطين : هي قضية العقيدة قضية الأمة كل الأمة بتاريخها وأجيالها وحضارتها ، فلا يملك أحد كائناً من كان ، ومهما كان حجمه ، حق التصرف بها إذ هي قضية الأجيال ، فلا يملك جيل بعينه حق التصرف بها أيضاً .

وعلى الرغم من أن القرن الرابع عشر كان قرن التمزق والتجزئة ، وأن حملات التغريب كانت ولا تزال تحاول الى الآن استبدال وسائلها والتسلل الى العالم الاسلامي ، من خلال بعض المفاهيم الاسلامية ، والعبث بالمصطلحات ، بعد أن أعياها السعي ، وتجاوزتها حركة المد الاسلامي ...

إلا أن القرن الخامس عشر سيشهد باذن الله ، التخلص النهائي من هذه العمالة الحضارية ، وهذا أول الطريق ، وما نلمحه الآن من الوحدة الشعورية بين المسلمين ، رغم واقع التجزئة ، وهذا الاحساس المتنامي بقضايا المسلمين في كل مكان رغم التعتيم الاعلامي والأسوار القاسية ، ليؤكد من جديد أن العقائد أقوى من السياسات ، وأن الأمم أقوى من الحكومات وان الأمة الاسلامية لن ترضى عن اسلامها بديلا ، وأن الاسلام قدر هذه الأمة ومصيرها وملاذها الأخير .

وإذا كانت التحولات الكبرى في التاريخ تحتاج الى أكثر من جيل يشارك في صنعها ، وكانت أجيال القرن الرابع عشر قد شهدت هذا الصمود ، والتحدي الهائل في وجه أعتى الهجمات ، فلعل المؤرخ يكتب عن أجيال القرن الخامس عشر أنها ستشهد باذن الله بداية عودة الحياة الاسلامية والحضارة الاسلامية ، وما ذلك على الله بعزيز ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .